الفصل الثاني

١

المرة الاولى التي شاهدت بها لوحة جمل المحامل

اللوحة التي بت ابحث عنها الان، بيني وبينها حكايات لم انساها وباتت جزء من علاقتي باللوحة وهي تطاردني مثلما اطاردها من بلد الى اخر ومن معلومة الى خبر ومقابلة وهكذا.

كان ذلك مطلع الثمانينات في مستشفى المقاصد الخيرية الإسلامية في القدس، عندما ادخل ابي الى هذا المشفى بعد ان تم نقله على عجل من مستشفى المطلع « الاوغستا فكتوريا » المجاور، وهو يعاني من التهابات في البروستاتا تسببت في حصر بول ومعاناة شديدة له.

شاهدت لاول مرة في حياتي، نسخة لوحة جمل المحامل للأسف في مكتب المحاسب في الطابق الأرضي من مستشفى المقاصد، حيث كان علينا إتمام مسألة الدفع في هذا المستشفى قبل ادخال المريض الى القسم الباطني، حيث سيتلقى أبي العلاج هناك لمدة ٢٠ يوماً. دفعنا يومها الذي تحتنا والذي فوقنا، كان مالاً كثيراً بالنسبة لأسرتي ولم تشفع حكاية ان أبي سجين سابق وان ثلاثة من أبنائه قابعون في السجون الإسرائيلية.

كان المحاسب يشترط دفعة مقدماً وهي عبارة عن١٤٠ ديناراً أردنياً، لنقوم بتسديد باقي المبلغ في غضون أربعة أيام فقط، والا سيكون علينا إخراجه من المستشفى الى أي داهية أخرى. لم يقل المحاسب الذي يعلق في غرفته لوحة جمل المحامل في أطار انيق، كلمة داهية ولكنه قال ما يشبه ذلك، ان هذه قوانين وان هذا مستشفى وطني ولا بد من تسديد الالتزامات والا لن يكون ممكناً تقديم الخدمات الطبية اللازمة للمريض ولا اعتباره نزيلاً

اصلاً.

أقول للأسف لان نسخة اللوحة تلك شكلت بالنسبة لي حجم المفارقة في تلك اللحظة، وانا اشاهد الاحتفاء بلوحة الرجل العجوز الذي يمثل الفلسطيني المكافح، مدلل في اللوحة التي على الجدار، ومضطهد في الواقع وبالذات في دفاتر المحاسبة الضخمة التي يفتحها الموظف لتحتل معظم مساحة مكتبه.

كان أبي يتلوى من الألم وهو ممدد قبل ذلك على سرير الإنعاش في مستشفى المطلع، كان معظم نزلاء قسم الإنعاش، جمال محامل تودع الدنيا او تكاد وكانت أجواء هذا القسم باردة كالقبر، اضوائها خافتة واقواس البناء التاريخي العريق العالية تضفي كثيراً من الدراما الانسانية على المشهد وكأننا في كهف من العصور الوسطى، وفي الخلفية كانت أنات المرضى فقط التي تسيب الركب، كان قد تم نقل ابي عبد الفتاح عصر ذلك اليوم كحالة ميؤوس منها لانتظار الموت حسب ما أبلغنا الممرض. غير انه عاش بعد ذلك اليأس لعشرة أعوام أخرى وهو بصحة جيدة.

ما علينا تدبرنا انا وأمي وزوج اختي محمد أبو عجمية، مهمة نقله بسرعه الى مستشفى اخر، وهذا ما حصل ونحن نجلس الان قبالة لوحة جمل المحامل نحاول تدبير و دفع مبلغ١٤٠ ديناراً أردنياً عدا ونقداً بالكاد نملك منها النصف قبل معاينة المريض واعطائه سريراً.

طبعت تلك اللحظة، صورة جمل المحامل بذهني بطريقة مختلفة، لم أستطع التخلص منها حتى يومنا هذا، صورة تثير الحزن والشك أكثر من أي شيء اخر. لذا حرصت ان لا أحبها وان لا أعلقها ابدا في غرفتي او في أي مكان خاص. رغم انها طاردتني كغيري من الفلسطينيين ونحن نشاهدها على الطالعة والنازلة، نشاهدها كثيمة حياة في هذه البلاد وأيقونة بلا منازع، نشاهدها ونحن في ظروف عاديه ونحن مسرورين ونشاهدها ونحن في ضائقة إنسانية، وقد ينطبق هذا على تاريخ الفن كله، فالمتلقي منتج اخر للصورة وظروفه حاسمه في قبول هذا الشيء او رفضه.

لم أكن لاهتم حينها باسم الفنان ولا سنة انتاجها، شعرت في كثير من

اللحظات وامام العديد من اللوحات التي شاهدتها في حياتي ان يد الهية هي التي رسمت. هناك ما هو أهم من الفنان ومن الفن نفسه. كان لدي زعم على الدوام او انه أصبح لدي بعد ذلك بكثير، انه ليس هناك فنان، هناك حالة فنية.

زعم غير متأكد من صحته، ان البشرية غالباً ما استراحت لفكرة إطلاق اسماء على علماء وكتاب ومخترعين وفنانين عظماء ساهموا في تقدم الحياة، افراد في مجالات مختلفة اقترنت اسماؤهم بهذا الانجاز او ذاك. غير ان الحقيقة هي في صيرورة الحياة وليس في شخصهم، فلان غير تاريخ الموسيقى وعلنتان اخترع المصباح الكهربائي وغيره أكتشف البنسلين وآخر اكتشف نظرية.

بالنظر عن قرب في سيرة اي من هؤلاء يمكن ان نلحظ بجلاء ان أياً منهم لم يكن قفزة عبقرية في الهواء، كان جزء اً من حالة وحوار مع اخرين ومع الطبيعة، تمكن هو او هي من دفع هذا الخط او ذاك هذه الفكرة او تلك خطوة للأمام في لحظة مواتية.

ينطبق ذلك على الفلسفة والعلوم والآداب والفنون بأنواعها، هناك حالة ما عامه، ثم تدفع الحياة باسم شخص ما واحد لتمثيلها واختصار تلك الصيرورة في عبقريته. صحيح هناك تفاوت بين قدرات الناس والتزامهم وانجازهم ومواهبهم غير ان الحياة أكبر، وما هم الا علامات على طريق طويل ليس له نهاية. والمعضلة الكبرى تكون عندما لا تكون هناك حالة ويكثر العباقرة.

لنعد للمحاسب ولجمل المحامل في غرفته، بعد ان باعت امي حيلتها من اساور الذهب لتدفع فاتورة المستشفى وتنقذ جمل العائلة من المرض، كان هناك شيء ناقص في الغرفة، كان هناك شيء ناقص في الحياة الدنيا لم يسعفه الفن ولا مهارة الفنان ولا لوحات متاحف العالم كلها ولا اعرف ما هو. فقد كانت الكمنجات تعزف، تعزف على العرب الخارجين من الاندلس وكانت النايات تئن وتصرخ مبهمة وحزن لا يستطيع الكلام ولا اللغة قوله.